تمظهرات الموت ودلائليته
في روايات "بشير مفتي

سامية غشير
جامعة باجي مختار - عنابة ⁂ الجزائر

ملخص

يشكل الموت سؤالا فلسفيا هاما في روايات "بشير مفتي" إذ يشغل مساحات واسعة منها وقد تطرق الروائي إلى موضوعة الموت كرافد جمالي يؤرخ للواقع المأساوي في فترة التسعينيات، والتي سادته مظاهر العنف والموت المختلفة، وكانت آثارها وخيمة على شرائح المجتمع خاصة طبقة المثقفين.

على ضوء ما تقدم يهدف هذا المقال إلى البحث في تجليات الموت ودلالاته المختلفة في روايات "بشير مفتي"، إضافة إلى الكشف عن أشكاله المادية والرمزية.

الكلمات المفتاحية: عوالم الرواية، مظاهر العنف والموت، الأشكال المادية والرمزية.

Abstract

Death is a philosophically important question in the novels of "Bachir Mufti". It occupies large areas that have influenced the novelist who placed the tributary esthetic of death within the tragic reality of the nineties. The former was revealed into manifestations of violence in the various cases of death, and took a heavy toll on the private intellectual class segments of society.

In light of the above, this article aims to shed light on the various manifestations of death, the disclosure of its features and symbolic forms, and its implications in the novels of "Bachir Mufti".

***Key words**: novel features, death manifestations, violence, material / symbolic forms*

تعدّ تيمة الموت من التيمات البارزة في الرّواية الجزائريّة المعاصرة، والتي اشتغلت عليها بكثرة خاصّة سنوات الأزمة الوطنيّة، والتي عانت فيها البلاد الجزائريّة من مأساة كبيرة كانت لها انعكاسات سلبيّة على المجتمع وخاصّة على طبقة المثقفين الذّين لم يجدوا سبيلًا للهروب من تلك الأوضاع المأساويّة سوى كسر حاجز الصّمت وإطلاق العنان لأقلامهم لتكتب وتسجل وتصوّر، حيث أنشأ الكتاب الجزائريّون نصوصهم في ظلِّ أوضاع الإرهاب والعنف والموت التي انتشرت في كلّ مكان، وحاولوا الكتابة عنه وتغذيّة نصوصهم بتيمات من صميم الواقع الإنساني الذّي كان ينزف تحت وطأة العنف، فكانت تجاربهم صادقة، حيث عبّروا عن مرارة الرّاهن الدّموي وعبثيّة الحياة التي تجسّد الفناء، عن هواجس الإنسان، قلقه الوجودي، صراعه مع الحياة، مقاومته للموت، ومنهم الرّوائي "بشير مفتي" الذّي اشتغل عليه بكثرة في نصوصه السردية.

وسنهدف من خلال هذا الفصل إلى البحث في تيمة الموت في روايات "بشير مفتي" وعن تمظهراته وأشكاله المادية والرّمزية، فيا ترى: كيف عالج الرّوائي إشكاليّة الموت في الرّوايات؟ وكيف تمظهرت أشكاله وتجلّياته؟ وهل وفق الرّوائي في نقل صدق تجربة الموت من خلال الرّوايات؟

تمظهرات الموت ودلائليته في روايات "بشير مفتي"

أ- الموت الإنساني

لقد شكلّت مرحلة التّسعينيّات نقطة تحوّل في مسار الكتابة الإبداعيّة الجزائريّة حيث اكتست النّصوص بلون السّواد، وهيمن عليها الحزن والألم جرّاء الواقع الممزّق الذّي عاشه الإنسان الجزائري، حيث ذهب المبدع الجزائري يعبّر عن عنف الرّاهن وانكسارية الذّات، وعن المصائر الجماعيّة ومنهم الرّوائي "بشير مفتي" حيث جاءت نصوصه الرّوائيّة "مصوّرة لحسّ الفجيعة والمحتوى المأساوي لجدليّة الذّات في صراعها

المحتوم مع الكون، وتعبيرًا عن صرخة القلب، وأنة الرّوح في مواجهة مشكلاتها المصيريّة، وقلقها الوجودي في ثنائيّة تقابليّة تتأرجح بين الطّموح والانكسار."[1]

فروايات "مفتي" تصيغ تيمة الموت فلسفيًا، كما أنّها تطرح الأسئلة القلقة التي تحاصر الذات والمجتمع والتاريخ، وتبرز حنكة الرّوائي ونضجه الفنّي وقدرته على تشخيص الواقع الجزائريّ عبر رؤية وجوديّة وباستخدام أدوات فنيّة توسّلها الرّوائي مستفيدًا من شتّى الاشتغالات السّرديّة المختلفة. فهذه الرؤية الوجوديّة* "تعبّر عن رفض الواقع بكلّ تجلّياته الاجتماعيّة والسّياسيّة، وتقدّم لمحة عن مدى تعقّد بنية هذا المجتمع الذّي أصبح يدعو إلى الهروب والانتحار."[2]

تفوح روايات "مفتي" بروائح الدم والقتل والموت التي تغتسل بها الصّفحات مشكلّة شهادةً على عنف ذلك الرّاهن، كما تعمد إلى "إيراد تلك الأخبار التي لا تبخل بها أزمة تستولد نفسها من ذاتها معاندةً كلّ سبل الحلّ الممكنة محوّلةً الرّوايات إلى ما يشبه صحيفة الحوادث."[3]

ما يلاحظ على هذه الرّوايات ا نبنائها على فكرة العدم، ونفي الوجود ورفض للحياة فهذا العدم يتصّل ا تصالًا عميقة بالشّخصيّة ومرافق لوجودها، فالعدم* "لا يمكن أن يكون عدمًا إلّا إذا ا نعدم صراحةً بوصفه عدمًا للعالم؛ أي إذا كان في إعدامه يتجه صراحةً إلى هذا العالم لكي يتكوّن كرفضٍ للعالم."[4]

ويتشكّل العدم انطلاقًا من الأسئلة عن الوجود، والتي من خلالها يتشكّل الشعور باللاوجود، فالشّخصيّة المحوريّة " ليليا عيّاش" في رواية "خرائط لشهوة اللّيل" ترفض ذلك العالم الذّي سلب منها عنفوان شبابها وحوّلها إلى بنت ليل، وبائعة جسد، فهي تشعر بالعدم يسكن روحها، والظّلام يفتل حاضرها، تقول: " ... أصرخ مودّعة الحياة التي عشتها بوجهين، اللّيل الشاعري المبهم، الحنين والرّغبات التي تحققت وتلك التي بقيت معلقة. أموت وأصرخ لا مخافة ولا مرتجفة، فقط أنادي من أحببت ومن كر هت، من رأيت ومن لم أرى، أنادي الجميع، أصرخ بصوت عال للغاية وداعًا، وداعًا أيتّها الحياة، أيتها الأرض الخراب، وداعًا أيتّها الحرب، الموتً القتلً، الجنون، التّوحش،

الذّكريات والأحلام، وداعًا.. وداعًا، لن أعود لك ثانيّةً، سيبتلعني العدم بعد قليل، وسأرحل مرتاحةً."[5]

إنّ عنف الرّاهن وعبثيته أثّر سلبًا على الشّخصيّة الرّوائيّة التي انفصلت عن عالمها في ظلّ شعورها بالقلق الوجودي، ورفضها التكيّف مع راهنها المأساوي، وتفضيلها الموت للتّحرر من ذلك الواقع الدّموي.

فالموت هو من يحقق الكينونة والحرّية والكرامة والتّحرّر من تراجيديّة الحياة وظلم السّلطات المتعدّدة وخاصّة سلطة الأسرة/ سلطة الأب الظّالمة، وهذا ما يؤكدّه "رضا شاوش" في رواية " دمية النّار" إذ يقول: " لقد خضت حربي بمفردي ضدّ والدي بالتأكيد، ضدّ قناعاته وتاريخه وسلطويته، وما كان يمثلّه أيضًا للجميع من شرٍّ كبيرو بأس مثير للمخاوف والرّعب، ثمّ ا نتهت الحرب بصمته هو، بجنونه، أو ا دعائه الجنون وموته بعدها، موته التراجيدي الّذي حدث ولم يخلق بداخلي إلّا الصّمت، نعم ذلك الصّمت الذّي لا يشبه إلّا العدم، لقد ذهب رمز عدواتي وتحدّياتي التي كنت أعتبرها مبرّرات وجودي."[6]

فالموت هنا بمثابة خلاص وانعتاق من أسر الحياة العرجاء العقيمة التي لا تولّد إلّا الوجع واليأس والموت البطيء، فهذه الحياة " التي لا تحمل تجديدًا يغري بالإقبال عليها ولا تضيف رصيدًا جديدًا إلى قيمة الإنسان، حياة لا طعم لها، ولا إقبال عليها، فهي (لا حياة) تؤدي تدريجيّا إلى (الموت) الحقيقي؛ أي أنّها موت معنوي يؤول إلى الموت المادّي المألوف الذّي يأتي خلاصًا طبيعيًّا من موت مصطنع خلفته ظروف صعبة تحاصر الحياة الكريمة، و تصيبها بالوجع."[7]

يرتبط فعل الموت بفعل القتل في هذه الرّواية، ممّا يؤدّي إلى حدوث موت معنوي للضمائر، للقيّم، موت جوّاني ينهك الرّوح، ويفتك الأحاسيس، فيتحوّل الكائن البشري إلى مسخ، يتكلّم "رضا شاوش" عن حالته النّفسيّة حيث كانت الانهيارات العاطفيّة والحياتيّة سببًا في موته الدّاخلي " كنت أفعل ذلك بروحٍ ميّتة وقلبٍ عقيمَ، وجسد لا يرتجف، وكنت بقدر ما أُمعن في تعذيب الآخرين أُمعن في تعذيب نفسيٍ، كانت روحي

الميّتة تنهض من موتها الدّاخلي وتصرخ، وكنت أشعر بذلك الصّوت المدوّي يكسّر جدران العادة الأليفة للقتل اليومي، لكن بعدها لم يكن يحدث شيء فأخلو إلى تلك العزلة الكئيبة بيني وبين جدران غرفتي، أمسك عن الكلام و التفكير وأشرب قدر ما أستطيع، وأحيانًا كان ذلك هو أكثر ما أستطيع تحقيقه مستسلمًا لحالة من الغيبوبة الطّويلة والنّسيان الكبير مستغرقًا في تلك العتمة غير الواضحة."[8]

أمّا في رواية " أشباح المدينة المقتولة" نلحظ أنّ الصّوت المهيمن على الرّواية هو صوت الموت الذّي ينتشر في مساحاتها، زواياها، ويكون الموت قدر أربعة شباب حوّلتهم تلك المدينة المعدمة إلى أشباح يعبرونها كلّ ليلة رافضين ذلك الواقع الذّي قتل أحلامهم و تطلّعاتهم، يتحدّون تلك المدينة وذلك الواقع من أجل إعلاء أصواتهم عاليًا "لا تريد الذّاكرة أن نموت، تريدنا أن نعيش وأن نبقى على قيد الحياة، فإذا متنا ماتت ذكرياتنا معا، كم يبدو الأمر مأساويًّا عندما تنفصل أرواحنا عن أجسادنا ومع الرّوح تذهب الذّكريات إلى مكان آخر تصاحبنا إليه أو هذا ما يحلو لي أن أتخيله، لكن لا أعرف ما سيبقى منها على الأرض أشياء قليلة ولا تصمد طويلًا تموت مع ما سيبقى منها على الأرض، أشياء قليلة على ما أظنّ ، قليلة ولا تصمد طويلا، تموت مع مرور الوقت، تنحرف، تصبح قصصًا خياليّة لا تحكى كحقائق ولكن كأساطير نسجها ذهن الإنسان فقط ليمضي بها وقته الضّائع، أو ليسخن بها قلبه الفارغ."[9]

فتلك الشّخوص الرّوائيّة تتمظهر موسومة بالإخفاق، وبالهزيمة؛ بل تصير مجرّد أشكال للموت " وبهذا المعنى فإنّ التّقطيعات المشهديّة لسيناريوهات الموت تتخذّ من مصائر الشّخوص الآيلة إلى حتفها أقنعةً متعدّدةً لوجه واحد هو الموت، سواءً أكان موتًا إراديًّا (انتحارًا) أم قتلًا."[10]

تتعرّض الرّواية إلى فكرة وجوديّة هامّة وهي الحرّية في تقرير المصير الإنساني من خلال عرض بعض النماذج التي اختارت مصيرها في الوجود مثل الشّخصيّة المثقفة الرّسام " سمير عمران" الذّي اختار إنهاء حياته القاحلة بالموت عن طريق الانتحار، فهذا المثقف الذّي كانت أحلامه كبيرة جدّا لكنّ طموحاته سلبت منه بسبب إرادة الحياة،

وتوهّمات فترة التّسعينيّات التي جعلت منه إنسانًا فاشلًا في الحياة، عابثًا، عاثر الحظّ، فا ختار البديل المخلّص له من براثين الحياة وهو الانتحار، فهو في الفكر الوجودي يتحمّل مَسؤوليّة اختياره، فالإنسان "مسؤول حتى عن رغبته نفسها في التّهرب من مسؤولياته، وأن يجعل نفسه سلبيًّا في العالم، وأن يرفض أن يؤثّر في الأشياء وفي الآخرين هذا أيضًا هو أن يختار نفسه، والانتحار ضربٌ من ضروب الوجود – في – العالم."[11]

وهذا ما يوضحه السّياق الآتي:."أحاول أن أقنعه أنّ سمير ا نتحر، ا ختار موته بنفسه، وأنّه ليس مسؤولًا على ا نتحاره، فصرخ في وجهي قائلًا: اَلجزائر كلّهَا يجب أن تكون مسؤولة أمام ا نتحار أيّ شاعر من أرضها. لم أكن أحبّ أن أعانده، وفي نفس الوقت كنت أتحدّث مَعه على طبيعتي: َ ألا تشعر أنّ الانتحار صار أحسن من أن يقتلك أيّ معتوهفي الطّريق، أو تموت في ا نفجار سيّارة أو حافلَة، وتقتل بعبثيّة كاملة، وهذا ما يحدث للآَخرين اليوم؟"[12]

فالرّسام "سمير عمران"مارس حريته في ا ختيار مصيره وهو الموت، فمن ثَمَّة فهو مسؤول عن حريته، والتي شكلّ من خلالها وَجوده البشري وخلوده، وهذا هو جوهر الوجود على حدّ التّفكير الوجودي الذّي يقرّ أنَّ "حرّية الإنسان وسعيه لبلوغ وجود شخصي أصيل يلقي مقاومة، كما أنّه قد ينتهي في بعض الأحيان بالإحباط، وفي كلّ حال مادام الموضوع يتعلق بالفرد فإنّ الوجود ينتهي بالموت."[13]

ويمكن القول إنّ روايات "مفتي" تشخيص أدبي لموضوعة الموت، وتناول ميثافيزيقي لإشكاليّة الموت عبر سرد ممزّق، عنيف، سوداوي، وشخوص تعاني قلقًا و جوديًّا، واللّانتماء والتشظّي بين الرّوح والجسد، فكانت رواياته بحقّ صورة صادقة عن عنف الرّاهن التّسعيني، الذّي ساده العدم، الموت، العبث، الخوف، اللّامعنى من الوجود، فالرّوائي فعلًا يُولي ا هتمامًا بليغًا بالبعد الميثافيزيقي لقضيّة الموت والإحساس بالتمزّق ا لذّاتي، ومن ثمّة فهوَ يستثمر مقولات الفلسفة الوجوديّة في هندسة معماره الرّوائي."[14]

ب- موت المكان والزّمان

ب-1- موت المكان

تهتّم الرّواية المعاصرة ا هتمامًا كبيرًا بالمكان، أو الفضاء أو الحيّز المكاني الذّي يحتّل مساحةَ واسعةً من مساحات المتون السّرديّة، فيعمد الرّوائيون إلى رصد ملامح المكان، وتصوير تشكلّاته وتجلّياته المختلفة، إضافةً إلى تأثيراته الإيديولوجيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة على الشّخوص والأشياء المحيطة به.

ترتبط الأمكنة في الرّوايات ا رتباطًا عميقًا بالذّات الإنسانيّة؛ حيث تعبّر عن أحوال الشخصيّة، أحزانها، وأحلامها، أَفراحها وأتراحها، متاعبها وأوجاعها، ا غترابها وقلقها الوجودي.

ما يلاحظ على روايات"بشير مفتي" تلك النظرة المأساويّة للمكان، فهذا الأخير فضاء للموت والفناء، العدميّة والعبثيّة، ومقبرة للمحاصيل الجنائزيّة.

فالشّخوص الرّوائيّة تبكي المكان – الجزائر- هذا المكان التي شهدت فيها تحوّلات مر احلها العمريّة طفولتها، شبابها، قصصها الغراميّة والأسريّة، كما تبرز رؤيتها التشاؤميّة عبر نبرة حادّة ساخرة من الحال الذّي آلت إليه هذه الأمكنة التي وهبت سحر إشرافتها، وألقها، وبهائها للحروب والأزمات.

والملاحظ أنّ هذه المدينة – الجزائر- تتصل تصالًا عميقًا بذات الإنسان، فهي التي تبلور تجربته الحسّية والإبداعيّة، لذلك تحضر حضورًا طاغيًّا في الرّوايات، وقد تعدّدت أوصافها السّلبيّة، وجمعت بين المأساوية والفجائعيّة من جهة، والعبثيّة والفناء من جهة أخرى.

لقد مثلت مدينة - الجزائر- عالما رمزيًّا بالنّسبة للشّخصيات الرّوائيّة خاصّة الحالمة منها، فقد خصّتها برؤى وجوديّة محضة تطغى عليها النبرة التشاؤميّة والعبثيّة، فهي تسلب الإنسان حريّته المطلقة، وسعادته وطموحاته، فعندما تهب هذه المدينة لأبنائها الموت والمأساة والألم وذاكرة العنف تصبح الأحلام مسيّجة بجدار المدينة المقتولة، يقول

الرّاوي وهو يفتح دفاتر الأصوات المفجوعة المقموعة: "كنت مثلهم فريسة ذلك المستنقع الذّي يسقط فيه الحلم فيستلطخ بأدران الخوف وأشواك القسوة.. أو كنت شاهدًا على تلك اللّحظات التي تنزل فيها شياطين السّماء وملائكة الجحيم فتغرز في قلب كلّ واحد جذوة سمومها النّارية ثمّ تتركه معلّقًا بين سماء لا يُدركها، وأرض لا تطأها قدمه."[15]

تبرز من خلال هذا السّياق الصّورة السّوداوية المقيتة عن الجزائر التي أضحى الموت مقدّسًا في راهنها، فلا استشراف لنهوضها وانعتاقها من شبح هذا الفناء الذّي يتربص بالأشياء الجميلة فيفنَيها، ويقطف براعم الأمَل قبل أن تزهر، فتندثر ويحلّ محلّها عتمة جارفة و سراب مفتك.

لقد مثّل المكان - الجزائر- عالمًا رمزيًّا بالنّسبة للشّخصيات الرّوائيّة خاصّة الحالمة منها، فقد خصّتها برؤى وجوديّة محضة تطغى عليها النبرة التشاؤميّة، العبثيّة، فهي تسلب الإنسان حريّته المطلقة، وسعادته وطموحاته، فعندما تَهبُ هذه المدينةلأبنائ ها الموت والمأساة والألم والعنف تصبح الأحلام مسيّجة بجدار المدَينة المقتولة، يقول الكَاتب وهو يفتح دفاتر الأصوات المفجوعة المقموعة "كنت مثلهم فريسة ذلك المستنقع الذّي يسقط فيه الحلم فيستلطخ بأدران الخوف، وأشواك القسوة.. أو كنت شاهدًا على تلك اللّحظات التي تنزل فيها شياطين السّماء، وملائكة الجحيم فتغرز في قلب كلّ واحد جذوة سمومها النّارية ثمّ تتركه معلّقًا بين سماء لا يُدركها، وأرض لا تطأها قدمه."[16]

لقد ارتبط الموت بالمكان ارتباطًا وجدانيًّا، فأضحى روتينًا مألوفًا، ولم يعد ظاهرة غريبة تلفتَ الانتباه، حيث أصبحَت هذه المدينة – الجزائر- تصدّر ثقافة الموت، الحقيقة الوحيدة في حياة كلّ الجزائريين، فهذا المكان يرتبط بالإنسان الجزائري ويشكّل تصوّراته للحياة، كما ينضج تجربته، فهو رغم قساوته، وبشاعته، وممارسته العزلة على الإنسان، إلّا أنّه يظلّ كامنًا في داخله "فالإنسان يعلم غريزيًّا أنّ المكان المرتبط بوحدته مكان خلّاق، يحدث هذا حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر وحين نعلم أنّ المستقبل لن يعيدها إلينا."[17]

والملاحظ أنّ الرّوائي بالغ في وصف المكان/ الجزائر بصور قاتمة تعكس رؤيته الفلسفيّة العدميّة للمكان؛ بل أنّه أغرق في التّصوير العميق حتى يجلي حاضره الذّي أضحى خرابًا وسرابًا، فهذه الرؤية تبيّن أزمة المكان الذّي انتقل من صوره المثاليّة القداسيّة كونه مكانًا للحياة والحرّية والإبداع والكتابة إلى صور أكثر مأساويّة، حيث أصبح مكانًا للعدم والعبث والعجز والاغتراب، فحلّ " "فحلّ الموت مكان الحياة في الكائنات والنباتات، فتنطلق نبرات اليأس من الذّات الباكيّة، ينكأها الشّوق كلّ حين ويزيدها الحاضر ضغطًا وتسلّطًا، كلّما تعدّدت أماكن الاندثار والتراجع، وأسلوب الاستذكار يصوّر المكان الماضي، وهو محاولة لتفتيت عناصر المكان الحاضر وتغييبه ثمّ الطّيران نحو الفردوس المفقود إلى المكان الدافئ."[18]

فالمكان الجزائري أضحى مكانًا خاويًا، جافًّا، باردًا، فضاءً للمأساة والخراب والسّوداوية، فالشّخوص الرّوائيّة تتحسّر على ضياعه وتمنّي النّفس بعودة مظاهر الحياة والجمال إليه.

ب-2- موت الزّمن:

ترتبط الرّواية المعاصرة بالزّمن ارتباطًا عميقًا، فالزّمن يكتسي أهمّية كبيرة في أيّ عمل روائي، فالرّواية " تركيبة معقدّة من قيّم الزّمن، فلا غرابة إذن في أنّ معظم الكتّاب الذّين لعبوا دورًا هامًّا في موكب القصّة قد أبانوا عن انشغال ذهني بالزّمن وأطالوا الحديث عنه. وفي معالجة الزّمن يكمن ذلك الجانب من جهد الرّوائي- الجانب الذّي ينطوي على أكبر قدر من الصّعوبة."[19]

ما يلاحظ على الرّوايات محاولة الرّوائي التّخلص من أسر الزّمن التّقليدي الجاهز والبحث عن زمن ميثافيزيقي قادر على استيعاب حاله النّفسيّة الصّعبة، وهذا ما جعل من الشّخوص الرّوائيّة شخوص فاقدةً الإحساس بالزّمن الطّبيعي؛ بل تعيش زمنها الخاص زمن المأساة والفجيعة؛ بل تبدو الرّوايات وكأنّها تعيش "اللّازمن" مستخرجةً كليًّا من الزّمن "حيث يشعر القارئ بأنّ الأحداث تسير في نوع من السلا سل الزّمنيّة الكابوسيّة

حيث المدّة مميّزة بالشدّة فقط، وخالية من الطّول والسّرعة، فيبحث عبثًا عن نقاط زمن خارجيّة، يستطيع أن يقدر بالمقارنة بها مدى امتلاء أو فراغ الرّقعة الجغرافيّة."[20]

يتدفق الشّعور بالموت ويهيمن على مساحات المتون الرّوائيّة ما يجعل من الشّخصيّات الرّوائيّة شخصيات عابثةً، كارهةً لوجودها، ناقمةً على محيطها و واقعها، ولاعنةً لماضيها، تنتظر لحظة الرّحيل الأخير، وعندما تجتمع العقبات والمشاكل يصبح مطلب الموت مطلبًا ينشر الفرح والسّعادة، فهذه اللّحظة الفاصلة/ لحظة الموت تعدّ اللّحظة المنتظرة لتخليص الذّوات المعذّبة من عذاباتها المتلاحقة والمتواصلة في عالم أضحت فيه تجارة الإنسان والمشاعر تجارةً مربحة، وهذا ما تقرّه " ليليا عيّاش" في رواية "خرائط لشهوة اللّيل": "كان الموت يدور في رأسي ويدور كما لو أنّ كلّ شيء أصبح مرتبطًا بلحظة الخام تلك، بزمن الرّحيل غير المؤجل، بدقائق السّفر الأخيرة، فشعرت بأنّ ذلك هو مطلبي في النّهاية. كنت قد ضيّعت فرصًا كثيرة من قبل لأسلك طرقًا أخرى، و لكن شاءت لي الصّدف، أو عبثيّة حياتي أن أنقاد في سيري لعالم مشوّش بكلّ شيء، و أن يختتم ذلك كلّه بنقطة تنسحق فيها الأحلام كلّها دفعةً واحدة وإلى الأبد.

فالإحساس بفقدان الشّعور بالزّمن أكثر ما يميّز الذّات القلقة من الوجود، حيث يمزج ماضيها بحاضرها، وحاضرها بماضيها " فالماضي هو الحاضر؛ لأنّ جوهر الحياة هو كونها حاضرة ولا يظهر سرّها في الأشكال الزّمنيّة للماضي والمستقبل، إلّا بمعنى أسطوري، والحاضر أيضًا هو الماضي."[21]

و هذا ما يجسّده السّياق الآتي:" تلك الأصوات البعيدة كأنّها قادمة من أزمنة متقادمة في التّاريخ قريبة جدّا وبعيدة للغاية، ما تزال صامدة صمودها الأسطوري، وتحمل وهج شمسها الدّاخلي كأنّها ولدت للتو، وخرجت من شرنقة العزلة الآن فقط."[22]

فالإنسان يفقد إحساسه بالزّمن الوجودي لمّا تمتلئ حياته بالعنف والموت، فإذا الزّمن ينقطع لمّا تنقطع الحياة في ذلك البلد - الجزائر- الذّي يخمد أنفاسه الأخيرة وهو يصارع شبح الذّاكرة، فيكتسي الهشاشات، وتضحى كؤوس الدّم تراق على ضفاف فضاءاته؛ إنّه العجز وفقدان الإحساس بالحاضر، فعندما تعيش الشّخصية زمن مأساتها

تفقد الإحساس بالزّمن المادي؛ بل تبقى رهينة لحظة الموت، حيث يأتي الزّمن بطيئًا متثاقلًا، يفتّت الرّوح والوجدان.

ينعدم الإحساس بالزّمن أكثر عند نشوب الحرب الأهليّة، التي شكلّت تطوّرا لتحوّلات العنف الجزائري ففي زمن المأساة ينعدم الإحساس الطّبيعي بالحياة/ الإحساس بالكتابة كونها تمثّل حافزًا للرّد على أحداث العنف ومقاومة الموت، وتدخل حينها القلوب والعقول سجن الوحدة، سجن الألم، سجن العذاب، فينجلي حينها التوق الشّديد للذّكريات الماضيّة، ذكريات والحلم الكتابة اللّتان تدركان جوهر الحياة والوجود، فذلك العجز ترجمة للحالة النّفسيّة القلقة، وتجاربه المتعثّرة في الوجود "لقد أدركت أنّ الإنسان يمكنه أن يتحطّم بسهولة ويسر. إنّ قوّته الداخليّة تنهار أمام الشّدائد العنيفة، ومع ذلك سيظلّ يحلم حتى لو خفت بريق الحلم وتلاشى مع مرور الزّمن، يظلّ يحلم بأبسط أشكال الحياة نزاهةً وصدقًا مع النّفس، لا شيء غير هذا، لكن في بعض الأحيان تجاوزه الحياة ويصبح فجأةً عاجزًا عن إدراك جوهرها العميق، ويتوه في دوامة من الأسئلة التي لا يخرج منها بسهولة."[23]

خاتمة:

في الأخير يمكن ا ستخلاص أهمّ النتائج:

- يحضر الموت كمحور رئيس يهمن على مساحات روايات "بشير مفتي" لدرجة يتحوّل إلى نقطة ا رتكاز السّرد، فقد عالج الرّوائي موضوعة الموت معالجة فلسفيّة ميثافيزيقيّة، عبر رؤًية وجوديّة أسهمت في بلو رة إشكاليّة الموت وجسّدت رؤيته العدمية، كون الموت يمثّل سؤالًا هام للإنسان، يجعله دائم التفكير والتأمّل، فالمعالجة الفلسفيّة ساعدت على إدراك الذّات و الوجود.

- تمظهر الموت في روايات " مفتي" في أشكال وتمظهرات عديدة حيث نجد الموت الإنساني، موت المكان والزّمان. فالموت الإنساني عالجه الرّوائي من زوايا عديدة كموت الأشخاص، موت القيّم والضّمائر، رصد مختلف الانهيارات العاطفيّة والنّفسيّة، حيث

ربط الرّوائي بين الموت وفترة العشريّة السّوداء، والتي عرفت فيها البلاد أزمة بفعل تصاعد مدى الموت، وفعل القتل والاغتيال. حيث تعبّر هذه الرّوايات بصورة سوداويّة عن تراجيديّة الموت، حيث ربطها الرَّوائي بفترة التّسعينيّات تلك الفترة العصيبة والمؤلمة، كما تقدّم أيضًا مشاهدًا عديدةً عن الموت المجّاني الذّي وسم تلك الفترة من خلال عرض عديد المصائر الجنائزية.

- أمّا الموت المكاني والزّماني فتمظهر من خلال فقدان الشّخصيّات الرّوائيّة إحساسها بالمكان والزّمان، حيث قام الرّوائي برصد أبرز الأمكنة قي الرّوايات، والتي قدّمها بصورة مأساويّة حزينة، مبرزًا مشاهد المأساة وصور الموت والعدم التي وسمتها. كما أنّ الزّمن الموظّف في الرّوايات زمن فلسفي، حيث تفقد الشّخصيّة إحساسها بالزّمن الطّبيعي، وتبقى رهينة لحظة الموت التّي تنسج حاضرها قتامةً ومأساةً.

الإحالات

1- عبد القادر فيدوح: دلائليّة النّص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعيّ، وهران – الجزائر- ط1، 1993، ص6.

* الوجوديّة: مذهب فلسفي يهتّم بمعالجة موضوعات الوجود الإنساني كالحّرية، المسؤوليّة، القلق، الاغتراب، تقرير المصير.

2-ينظر، مجموعة من المؤلفين: المحكي الرّوائي العربي أسئلة الذات والمجتمع، دار الألمعيّة للنشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2014، ص225.

3- مخلوف عامر: الرّواية والتحولات في الجزائر،دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، من منشورات كتاب العرب، دمشق – سوريا-، دط، 2000، ص85.

*العدم وهو نقيض الوجود، ويقصد به في الفلسفة الوجوديّة انعدام العالم، وغياب الوجود.

4- جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيّة الظاهراتيّة، ترجمة عبد الرّحمان بدوي، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1966، ص 72.

5- بشير مفتي: خرائط لشهوة اللّيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص141.

6-بشير مفتي: دمية النّار، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص159.

7- حسان زرمان: تشاكلات الحياة والموت في قصص السّعيد بوطاجين، مجلة النّاص، مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة جيجل، العدد 11، جوان 2012، ص82.

8-بشير مفتي: دمية النّار، ص150.

9- بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص12.

10-نسيمة بوصلاح: جدليّة الحبّ والموت في قصّة البوغي، دار بهاء الدّين للنّشر و التّوزيع، الجزائر، ط1، 2009 ص66.

11- جيمس. ب. كارس: الموت والوجود، دراسة لتصوّرات الفناء الإنساني في التراث الدّيني والفلسفي العالمي، ترجمة بدر الدّيب، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، دط، 1998، ص876.

12- بشير مفتي: غرفة الذكريات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014 ص215.

13-جون ماكوري: الوجوديّة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة(سلسلة)، سلسلة كتب ثقافيّة شهريّة يصدرها المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب – الكويت-، العدد 58، أكتوبر 1982، ص20.

14-أ. أ مندلاو: الزّمن والرّواية، ترجمة بكر عبّاس، مراجعة إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت – لبنان-، ط1، 1997، ص75- 76.

15- جعفر يايوش: الأدب الجزائري الجديد، التجربة والمآلمركز البحث في الأنثربولوجيّة الاجتماعيّة والثّقافيّة، الجزائر، دط، 2007ص228.

16- بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، ص11.

17-غاستون باشلار: جماليّات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر و التّوزيع بيروت – لبنان- ط2، 1984، ص40.

18-بهلول شعبان: فلسفة المكان وأبعاده الجماليّة في روايتي (ذاك الحنين- الولي الطّاهر يرفع يديه بالدّعاء) مجلّة السّوسيولسانيات و تحليل الخطاب، مجلة دورية أكاديميّة محكمة يصدرها مخبر السّوسيولسانيات وتحليل الخطاب، جامعة مولاي الطّاهر- جامعة سعيدة- الجزائر، ص150.

19- أ. أ مندلاو: الزّمن والرّواية، 1997 ص162.

20-بشير مفتي: خرائط لشهوة اللّيل، ص103.

21- أ. أ مندلاو: الزّمن والرّواية، ص 164.

22- بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، ص11.

23- - بشير مفتي: غرفة الذّكريات، ص 15

تاريخ الإيداع:2015/10/20 **تاريخ القبول:2016/04/18**